

محمد بن أبي ثابت الزياني، من السلطة إلى الإصلاح (866-873هـ/1461-1468م)

من خلال التنسي وعبد الباسط بن خليل

Muhammad Ibn Abi Thabit Al-Zayani (866-873H/1461-1468AD)

From Power to Reform, Through al-Tanasi and Abd Al-Basit Ibn Khalil

✉ بوبية مجاني

جامعة قسنطينة 02 (الجزائر)

bouba.medjani@gmail.com

✉ يوسف بردودي *

مخبر الدراسات والبحوث في حضارة المغرب الإسلامي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة (الجزائر)

youceff80@gmail.com

المخلص:

معلومات المقال

عرفت العلاقات السياسية بين الدولتين الزيانية والحفصية توترًا واضطرابًا طوال مدة وجودهما، والتي أدت إلى سيطرة الدولة الحفصية على الدولة الزيانية عديد المرات، لكن طول هذا الصراع لم يمنع الزيانيين من محاولة فك قيود السيطرة الحفصية، وقد جاءت هذه الورقة البحثية لتسلط الضوء على السلطان الزياني محمد بن أبي ثابت ومشروعه السياسي، القائم على بناء دولة قوية و مستقلة عن الوصاية الحفصية، والذي تم على مرحلتين، مرحلة الثورة التي انتهت بوصوله إلى السلطة، ثم مرحلة الإصلاح التي مست عدة جوانب، وهذا ما لمسناه من خلال مؤلفين كانا شاهدا عيان، وهما أبو عبد الله التنسي وعبد الباسط بن خليل، اللذين قدما صورة واضحة ومتكاملة عن فترة حكم محمد بن أبي ثابت الزياني وما تخللها من مظاهر الاستقرار السياسي والازدهار العمراني والنشاط الثقافي.

تاريخ الإرسال:

2023/02/25

تاريخ القبول:

2023/03/31

الكلمات المفتاحية:

- ✓ محمد بن أبي ثابت
- ✓ أبو عبد الله التنسي
- ✓ نظم الدر والعقيان
- ✓ عبد الباسط بن خليل

Abstract:

Article info

The political relations between the Zayanid and Hafsidi states were tense and turbulent throughout their existence, which led to the control of the Hafsidi state over the Zayanid state many times, but the length of this conflict did not prevent the Zayanids from trying to break the restrictions of Hafsidi control, and this research paper came to shed light on the Zayani Sultan Muhammad ibn Abi Thabit and his political project, based on building a strong state independent of the Hafsidi tutelage, which took place in two stages, the stage of the revolution that ended with his accession to power, and then the stage of This is what we saw through two authors who were eyewitnesses to this period, namely Abu Abd Allah al-Tansi and Abd al-Basit ibn Khalil, who presented a clear and integrated picture of the period of the rule of Muhammad ibn Abi Thabit al-Zayani and the manifestations of political stability, urban prosperity and cultural activity.

Received:

25/02/2023

Accepted:

31/03/2023

Key words:

- ✓ Muhammad Ibn Abi Thabit
- ✓ Abu Abd Allah Al-tanasi
- ✓ Nadm al-Durr wa al-Aqian
- ✓ Abd al-Basit Ibn Khalil

*المؤلف المرسل

بعد إعلان يغمراسن بن زيان تأسيس الدولة الزيانية سنة 633هـ/1236م، كان في البداية ولائه الرمزي للموحدين حتى لا يلفت أنظار جيرانه المرينيين في الغرب والحفصيين في إفريقيا، حيث كانت كل واحدة من الجارتين الحفصية والمرينية ترى نفسها بأنها أحق من غيرها في وراثة ممتلكات الدولة الموحدية المنهارة¹. وبمجرد شروعه في توسيع دولته من ناحية شلف اصطدم باعتراض الحفصيين على هذا التوسع فعالج يغمراسن هذه القضية بما اكتسبه من شجاعة وحكمة وديبلوماسية هادئة² بعقد صلح مع الحفصيين، استغله في بناء دولته الفتية التي أورتها لبنينه من بعده لمدة تزيد على ثلاثة قرون.

وخلال هذه الفترة تعرضت الدولة الزيانية لعدد التهديدات من قبل جيرانها المرينيين والحفصيين، أدت في أحيان كثيرة إلى اختفائها لتظهر من جديد بفضل سلاطين أقوياء من بني زيان، صمموا على إحيائها واستمراريتها، وتكوين قوة سياسية في هذا الإطار الجغرافي الواقع بين إفريقيا والمغرب الأقصى³.

وقد ساعد الاستقرار الذي شهدته الدولة الحفصية عهد السلطان أبو فارس عبد العزيز (796-837هـ/1394-1433م)⁴، على التربص بسلاطين بني زيان، وتحين الفرص للتدخل في شؤونهم بتوسيع دائرة نفوذه على المغرب الأوسط وعاصمته تلمسان، فنهض بجيشه نحو مدينة تلمسان عديد المرات بدءا من سنة 827هـ/1424م، إلى سنة 837هـ/1436م⁵، وقد حاول آل زيان أكثر من مرة أن يعيدوا للدولة هيبتها ويعيدوا لها قوتها ومجدها حتى يتمكنوا من صد الحفصيين على أراضيهم، لكنها تبوء بالفشل، إلى غاية سنة 866هـ/1462م، حيث تمكن محمد بن أبي ثابت من الوصول إلى السلطة بعد ثورة دامت أكثر من ثلاثة وعشرون سنة، تلتها مرحلة الإصلاح والتي عمل السلطان الزياني من خلالها على بناء دولة قوية ومتلاحمة يستطيع من خلالها التصدي للحفصيين. وذلك للإجابة على أسئلة الدراسة وهي كالتالي:

- ما مدى مساهمة التنسي وعبد الباسط بن خليل في مشروع الدولة لمحمد بن أبي ثابت الزياني؟
- كيف أثرت الخلفية الفكرية لكلا المؤلفين التنسي وعبد الباسط بن خليل من نظرتهم للأحداث؟
- ماهي أبرز المواقف السياسية والثقافية والعمرائية لمحمد بن أبي ثابت الزياني؟

1. قراءة في مصادر البحث

تعرف المصادر على أنها الأصول التي يتم الرجوع إليها لاستخلاص المعلومات منها وبغرض البحث في الأفكار بشكل شامل دون مواجهة أي صعوبات للحصول على المعلومات الأصلية من جذورها، والمصادر هي المؤلفات والمصنفات المخطوطة منها والمطبوعة التي عاصرت الأحداث المدونة أو القريبة منها، أنتجها الإخباريون والمؤرخون والجغرافيون والرحالة وأصحاب التراجم والسير والأدباء والشعراء وكتب الحسبة والخراج والنوازل الفقهية والأنساب وتعرف هذه المصادر بالأوعية الفكرية⁶ لما تحملها في طياتها من عناصر متكاملة حول موضوع معين، كل حسب ظرفه الزمني ووضعه المكاني⁷.

تدخل ضمن المصادر كل المعلومات والحقائق التي تتصل بأي موضوع يخضع للدراسة والبحث، وقد اعتبر المفكر الانكليزي كولنجورد في كتابه فكرة التاريخ: "أن أي شيء في العالم يمكن أن يغدو شاهداً على أية مسألة، ويعتبر مصدراً تاريخياً، فبدونه لا يمكن التوصل إلى استنتاجات أو أحكام، وبانعدامه لا يتأتى لنا رسم صورة للتطورات والأحداث الماضية"⁸، وهذا ما عبر عنه أسد رستم في كتابه مصطلح التاريخ⁹ بقوله: "إذا ضاعت الأصول ضاع التاريخ معها... ذلك أن التاريخ لا يقوم إلا على الآثار التي خلفتها عقول السلف أو أيديهم، فإذا سطت محن الدهر أو عوادي الزمن على بعض هذه الآثار وأزلت معالمها فقدها التاريخ، وكانت كأنها لم توجد، وبفقدتها يجهل تاريخ عصرها ورجالها".

ومن صور هذا التاريخ، تاريخ الدولة الزيانية في الفترة الممتدة بين (873-843هـ/1440-1469م)¹⁰، والتي تتعدى فيها الأصول - تقريباً - التي تؤرخ لهذا السلطان وفترة حكمه ومواقفه على المستوى السياسي والثقافي والاقتصادي، فكان لزاماً على الباحث في هذه الفترة، البحث عن الآثار والشواهد التي تخلفت عن السلف، والتي اصطلحنا أن نسميها أصولاً¹¹، فيعمل على تجميعها وتقييمها وتحليلها ومقارنتها للوصول للهدف المنشود لكل باحث، الحقيقة دون زيادة أو نقصان.

ومن خلال البحث تبين أن هناك مصدرين مهمين فيما يخص فترة حكم السلطان محمد بن أبي ثابت الزياني بصفة خاصة، كونهما كانا شاهدين على تلك الفترة وهما: مخطوط "نظم الدر والعقيان في بيان شرف آل زيان" لأبي عبد الله محمد التنسي 899هـ/1494م، وكتاب "الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم" لعبد الباسط بن خليل 920هـ/1514م¹²،

1.1. التعريف بأبو عبد الله محمد التنسي، ومخطوطه نظم الدر والعقيان

1.1.1. التعريف بأبو عبد الله محمد التنسي

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي التلمساني¹³ من أكابر علماء تلمسان في القرن التاسع الهجري/15م، عرف بالتنسي نسبة إلى مدينة تنس¹⁴ الساحلية، واشتهر بالتلمساني بعد انتقاله إلى تلمسان، واقامته فيها، حيث كانت تلمسان عاصمة الزيانيين من أهم مراكز العلم والعلماء، ومعقلاً من معازل المذهب المالكي، ولم يذكر المؤرخون تاريخ مولد التنسي غير أن السخاوي يشير أن التنسي قد بلغ من العمر ستين سنة في عام ثلاثة وتسعين وثمانمائة¹⁵، ومع معرفة تاريخ وفاته عام 899هـ/1494م، فيكون التنسي قد توفي وعمره في حدود ستة وستون سنة.

رأى معظم المؤرخين أن مدينة تنس هي المكان الذي ولد فيه محمد بن عبد الجليل التنسي، وينتسب إليها رغم انعدام الأدلة التي تثبت ذلك مباشرة، وقد حاول الأستاذ محمود بوعياض أن يثبت ذلك من خلال اعتماده على نصين من كتاب نفح الطيب للمقري، قدم من خلالهما تفسيرين مهمين:

التفسير الأول: وفيه اعتمد على اسمه أولاً، إذ قارن بينه وبين أفراد أسرة المقري على سبيل المثال

الذين لازمهم لقب المقري من أحد أجدادهم نسبة إلى مدينة مقرة بالمسيلة بعد هجرته إلى تلمسان واستقراره بها

هو وأبناؤه وأحفاده من بعده¹⁶.

أما التفسير الثاني: فبالاعتماد أيضا على نسان من كتاب نفح الطيب للمقري يثبتان أن صاحب الدر والعقيان تنسي المولد لما وصف التنسي بقوله: "... عن والده حافظ عصره سيدي محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي ثم التلمساني الأموي"¹⁷.

أما النص الثاني فيبدو انه أكثر جلاء للفكرة، لما أكد المقري أن التنسي ليس بتلمساني بل من الوافدين إليها والمقيمين فيها حيث قال: "الإمام الحافظ التنسي نزيل تلمسان"¹⁸.

2.1.1. شيوخه

توافر للحافظ التنسي مجموعة من العلماء اتصف معظمهم بالتصانيف المفيدة في مختلف العلوم والفنون نظما ونثرا، وكل منهم وصف بالفضل والعلم، ونعتوا بالرواية والدراية، وقد ألف التنسي فهرسا قيد فيه مشايخه، ذكره عبد الحي الكتاني فقال: "وله فهرسة نرويهها بأسانيدها إلى أبي العباس المقري، وسعيد قدورة"¹⁹، ومن أهمهم:

- ابن مرزوق الحفيد (ت 842/هـ 1438م)²⁰، وأحمد بن زاغوا لتلمساني (ت 845/هـ 1441م)²¹، محمد بن ابراهيم بن الإمام أبو الفضل التلمساني (ت 845/هـ 1441م)²²، ومحمد بن النجار التلمساني (ت 846/هـ 1442م)²³، والحسن بن مخلوف الشهير بأبركان (ت 846/هـ 1442م)²⁴، وقاسم بن سعيد العقباني، يكنى أبا الفضل وأبا القاسم (ت 854/هـ 1450م)²⁵، وإبراهيم بن محمد بن علي، أبو إسحاق، أبو سالم التازي (ت 866/هـ 1461م)²⁶.

3.1.1. أهم مؤلفاته

خلف التنسي العديد من المؤلفات في عدة فنون فبالإضافة إلى كتابه نظم الدر والعقيان له أيضا:

- كتاب الطراز في شرح ضبط الخراز²⁷، وفهرسة ذكر فيها شيوخه²⁸، وتعليق على مختصر ابن الحاجب²⁹.
- راح الأرواح، فيما قاله المولى أبو حمو من الشعر وقيل فيه من الأمداح، وما يوافق ذلك على حسب الاقتراح³⁰.

4.1.1. مكانته العلمية، وثناء العلماء عليه

يعتبر التنسي شخصية علمية بارزة في عديد العلوم والفنون، حيث كان يشغل جل وقته في المدرسة اليعقوبية³¹ للتدريس، وتارة في المسجد، وتارة أخرى في بيته، فهو مقرئ وأديب ومؤرخ وأديب ومفسر ومحدث، نال إعجاب معاصريه من العلماء والفقهاء والأدباء، فنعتوه بأوصاف علمية بواته مكانة عالية بينهم، منها وصف الونشريسي³² "الفقيه التاريخي الحافظ الأديب الشاعر"، أما التمبكتي³³ فقال: "الفقيه الجليل الحافظ الأديب المطلع من أكابر علماء الجلة"، في حين وصفه صاحب شجرة النور الزكية³⁴ فقال هو: "من أكابر علمائها الجلة الإمام الجليل الفقيه المطلع بقية الحفاظ الأديب العالم المتفنن".

فهو موسوعة علمية أدبية وفقهية وتاريخية، برزت من خلال عديد المؤلفات التي خلفها وكانت في جميع

فنون العلم تقريبا، وخاصة كتاب نظم الدر والعقيان في بيان شرف آل زيان الذي أفردنا له مبحثا خاصا به، والذي باننت فيه شخصيته الأدبية وبراعته في البلاغة ومشتقاتها بلا منازع، إلى غاية تاريخ وفاته سنة 1494/899هـ³⁵.

1.2.1. التعريف بمخطوط نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان

يعد مخطوط نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان وذكر ملوكهم الأعيان ومن ملك من أسلافهم فيما مضى من الزمان، لأبي عبد الله محمد بن عبد الجليل التنسي التلمساني المتوفى سنة 1494/899هـ، من أهم المصادر التي تعنى بتاريخ الدولة الزيانية، إذ يتضح من خلال العنوان أن التنسي ألف كتابه في تاريخ بني زيان المنحدرة من قبيلة زناتة، والتي تعد من أكبر قبائل المغرب الأوسط، وبيان منزلتهم المتصفة بالعرز والشرف وإلى هذا المعنى أشار التنسي في مقدمته بقوله: "وسميته نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان وذكر ملوكهم الأعيان ومن ملك من أسلافهم فيما مضى من الزمان"³⁶، ولا يزال المؤلف مخطوطا إلا في بعض الأجزاء التي تم تحقيقها، ولا تزال نسخ المخطوط موجودة وموزعة على عديد المكتبات شرقا وغربا ومنها: نسخة بالمكتبة الوطنية بالجزائر³⁷، ونسخة بزاوية الهامل ببوسعادة³⁸، وثلاث نسخ في الخزنة العامة بالرباط³⁹، نسختين في المكتبة الوطنية بباريس⁴⁰، ويتكون هذا المصنف من حيث المادة المعرفية إلى جزئين موزعين على خمسة أقسام:

1.2.1. الجزء الأول يهتم بالجانب التاريخي

أما القسم التاريخي فهو القسم الأول من المخطوط، ويتكون من سبعة أبواب⁴¹، حقق منه الباب السادس⁴² والسابع⁴³، ويشتمل هذا القسم "على التعريف بنسب محمد بن أبي ثابت، وسلفه الكريم، وبيان شرفه في الحديث والقديم متبعا بجملة صالحة من مناقب الملوك ومآثرها ومحامدها ومفاخرها وسيرها وعوائدها وجوائزها وفوائدها ومحاسن شيمها وشرف هممها وجميل آرائها وأفعالها وكريم تجاوزها واحتمالها وعزمها وامضائها وحزمها وإبقائها"⁴⁴.

1.2.2. الجزء الثاني يهتم بالجانب الأدبي

وهو الجزء الأدبي من نظم الدر والعقيان، مكمل للجزء الأول التاريخي منه باعتراف التنسي نفسه لما وصفه بأنه: "مكملا بالحكايات البارعة، والوصايا النافعة، والمخاطبات الفائقة، والأشعار الرائقة، والنوادر المستغربة والأجوبة المستعذبة، مختتما بحكم تجلو صدى الخواطر، ومواعظ تبكي النواظر"⁴⁵. وينقسم بدوره إلى أربعة أقسام ويختص القسم الأول منه بخصال الملك وما يليق به من السيرة وجميل الخلال وفيه ثلاثة أبواب: الباب الأول في السياسة، والثاني في الخصال التي بها كمال الملك، والثالث في الخصلة التي هي روح خصال الملك المحمود، أما القسم الثاني فيشمل ذكر ملح النوادر المستطرفة عن أجناس مختلفة وفيه ست عشر بابا. في حين يتضمن القسم الثالث محاسن الكلام في النثر والنظم وعلوم اللغة والبلاغة، ويتكون من ثمانية أبواب⁴⁶، ويختتم بالقسم الرابع الذي يتضمن المواعظ والأحاديث النبوية الشريفة والحكم المتنوعة⁴⁷.

تعد كتب الآداب السلطانية نمط من الكتابة السياسية شاعت في العصر العباسي الاول، تدور حول العلاقة بين الحاكم والمحكوم منقولة بمعظمها عن السلطانيات الفارسية، وقد دشن هذه الايديولوجيا السلطانية حسب تعبير محمد عابد الجابري⁴⁸ ابن المقفع (ت 142هـ/759م)، الذي عاصر أواخر العهد الأموي وعهد قيام الدولة العباسية أي تحول الخلافة إلى دولة الملك السياسي.

ويقوم هذا النوع من الكتابات، على مبدأ نصيحة أولي الأمر في تسيير شؤون سلطتهم، إذ تتضمن كل موادها مجموعة هائلة من النصائح الأخلاقية والقواعد السلوكية، الواجب على الحاكم اتباعها، بدءاً مما يجب أن يكون عليه في شخصه، من الخصال الحميدة والأخلاق الكريمة، إلى طرق التعامل مع رعيته، مروراً بكيفية اختيار خدامه واختبارهم، وسلوكه مع أعدائه⁴⁹.

ويعد كتاب نظم الدر والعقيان من هذا النوع من الكتب - الآداب السلطانية- الذي ألفه التنسي لبيان شرف السلطان محمد المتوكل، حيث اتبعه بذكر جملة من مناقب الزينيين ومآثرهم، ثم زاده بياناً بالحكايات والوصايا والأشعار، فالآداب السلطانية شكلت مجالاً خصباً للفقهاء الكاتب ليطلق لنفسه العنان فيقول ما لا يمكن أن يقوله الفقيه المجرد المقيد بالأدلة والأصول وقواعد الاستنباط بسبب اختلاف طبيعة التصنيف الفقهي عن الكتابة السلطانية⁵⁰.

يوفر هذا النوع من الكتابة - الآداب السلطانية- مادة غزيرة، لكنها في الوقت ذاته غير دقيقة، وظلت تلك المادة قابلة للزيادة والتأليف على منوالها، مشكلة حالة أقرب ما تكون إلى الفوضى في الاستشهاد، وعدم الدقة في نسبة الأقوال إلى أصحابها، والاتجاه إلى تكثير الحكم والأمثال والأشعار دون رابط موضوعي، وتوليد القصص بعضها من بعض، وهذه المرونة الشديدة تفسر الإقبال الكبير على التأليف في هذا الحقل⁵¹.

وتفسر حالة التكرار للعبارات والأوصاف والصور المبتوثة في الآداب السلطانية في مرحلة متقدمة من تطورها، والغرض منها البعث على التسلية والراحة النفسية أكثر منها معلومات تاريخية تحاكي الواقع المعاش، وقد اعترف التنسي بذلك لما قال عن كتابه أنه: "مكملاً بالحكايات البارعة، والوصايا النافعة، والمخاطبات الفائقة، والأشعار الرائقة، والنوادر المستغربة والأجوبة المستعذبة"⁵²، والغريب أن هذه التكملة جاءت مطولة في أربعة أقسام كاملة، عرفناها بالجزء الثاني الذي يهتم بالجانب الأدبي.

تكمن أهمية كتاب التنسي في كونه المصدر الوحيد لدراسة تاريخ بني زيان بصفة عامة والسلطان محمد بن أبي ثابت بصفة خاصة، في فترة تزيد على سبعين عاماً من تاريخ الزينيين، أي بدءاً من التاريخ الذي انتهت فيه أخبار زهر البستان سنة 764هـ/1363م، وتاريخ توقف بغية الرواد ليحيى بن خلدون سنة 777هـ/1376م، وانتهاء أخبار كتاب العبر لعبد الرحمن بن خلدون في حوالي سنة 796هـ/1393م، في حين يكمل التنسي أخباره عن الدولة الزينانية إلى غاية سنة 868هـ/1464م، وهي سنة انقطاع أخبار التنسي، فلا نجد مصدراً واحداً يضم كلاماً مسلسلًا عن تاريخ بني زيان، بل لا نجد مصدراً موثقاً به يمكنه حتى من ذكر قائمة الملوك من بني زيان الذين تولوا بعد محمد ابن أبي ثابت المتوكل بالله⁵³، والذي ذكر أن مدة حكمه

تنتهي سنة 873هـ/1468م⁵⁴.

3.1. التعريف بعبد الباسط بن خليل، وكتابه الروض الباسم

1.3.1. التعريف بعبد الباسط بن خليل

هو أبو المكارم زين الدين عبد الباسط بن أبي الصفاء غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري الملطي الحنفي، ينتمي إلى أسرة مملوكية شهيرة تميز أكثر أفرادها بالعلم وسعة الثقافة، وترك بعضهم آثارا باقية ما تزال تحتفظ بمكانة حقيقية في الحياة الفكرية بمصر، ولد في ملطية، ليلة الأحد 11 من شهر رجب سنة 844هـ/1440م، وفي سنة 859هـ انتقل مع أبيه إلى القدس وفي طرابلس نزل والده عند أحد التجار المياسير، فجمع عبد الباسط بن خليل في حياته بين العلم والتجارة، وذلك من خلال الرحلات التي قام بها في المشرق والمغرب والاندلس، توفي في القاهرة يوم الثلاثاء في الخامس من شهر ربيع الآخر سنة 920هـ/1514م⁵⁵.

1.1.3.1. شيوخه

أقبل عبد الباسط بن خليل على طلب العلم إذ حفظ القرآن الكريم في مرحلة مبكرة من عمره، ثم أقبل على دروس الفقه الحنفي على يد كبار الشيوخ في القدس حيث كان والده واليا عليها، إلى أن انتقل إلى القاهرة، عاصمة المماليك والعلم، وهو في سن الخامسة عشر، فأتم تعليمه بها على يد أساطين العلماء ومن بين هؤلاء: - والده، خليل بن شاهين الظاهري (ت 893هـ/1488م)⁵⁶، وقوام الدين الرومي (ت 858هـ/1454م)⁵⁷، وعبد الوهاب بن محمد بن زهرة الحبراضي (كان حيا سنة 865هـ/1461م)⁵⁸، شمس الدين السخاوي (ت 902هـ/1497م)⁵⁹.

2.1.3.1. مؤلفاته

كتاب نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين⁶⁰، وكتاب غاية السؤل في سيرة الرسول⁶¹، وكتاب القول الحزم في تاريخ الأنبياء أولي العزم⁶²، وكتاب نيل الأمل في ذيل الدول⁶³، وكتاب المجمع المفضن بالمعجم المعنون⁶⁴، والروض الباسم في حوادث العمر والتراجم⁶⁵.

2.3.1. التعريف بكتاب الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم

شهد القرن التاسع الهجري والعاشر في مصر ظهور مؤرخين مشاهير أعلام، كان من بينهم المحدث ابن حجر العسقلاني، والمؤرخ تقي الدين المقريزي والحافظ شمس الدين السخاوي وغيرهم، ولقد ساهم هؤلاء المؤرخون الأعلام في إثراء الحياة العلمية للأمة الإسلامية، بما صنفوا من تأليف تناولت تاريخ الأحداث والوقائع، مع ما قد يلتحق بذلك من حديث عن تراجم وسير الملوك والعلماء والفضلاء والأعلام. يعد كتاب الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم، من تلك السلسلة التاريخية التي ابتكر فكرتها المحدث المؤرخ ابن حجر العسقلاني، وهي تلك المؤلفات التي تؤرخ كل منها للأحداث التاريخية مع ترجمة للأعيان المؤثرة في تلك الأحداث.

وقد ابتدأ ابن حجر المتوفى سنة 852هـ، هذه السلسلة بكتابه "أنباء الغمر بأبناء العمر"⁶⁶، ثم تبعه فيها

تلميذه ابن الصيرفي المتوفى سنة 900هـ، فألف كتابه "إنباء الهصر بأبناء العصر"⁶⁷، ثم جاء عبد الباسط بن خليل المتوفى سنة 920هـ، ليختتم هذه السلسلة في العصر المملوكي بكتابه الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم، وهو ينص على ذلك في مقدمته فيقول: "ابتدأت فيه من مولدي الذي هو أربع وأربعين وثمانمائة ليكون أعون في الحوادث المتجددات والوفيات على التحقيق، أذكر فيه غرر المتجددات اليومية ومشتهر الحوادث العصرية، ونبدأ بتراجم ووفيات جماعة من الأعيان من أهل العصر على جهة الكشف والبيان، فلربما ترجمة من موجودي الأعيان بمناسبة أو استطراد في ترجمة أو في ولاية أو في غير ذلك من المحال من غير اغفال"⁶⁸.

يأخذ الكتاب أهميته - رغم الفترة التاريخية القصيرة التي وصلتنا منه، حيث نقل المصادر عن هذه المرحلة بشكل ملحوظ عن بلاد المغرب الإسلامي والأندلس كشاهد عيان بحكم رحلته إليها، وإقامته فيها نحو خمس سنين (866-871هـ)، وعلاقاته برجالات الحكم والسياسة فيها، وصدقاته الواسعة مع أهل العلم، وكبار التجار. ويعرض لأخبار مغربية وأندلسية لا نجدها عند غيره، ويتناول يوميات حكام وسلاطين المغرب الإسلامي وبنو الأحمر في الأندلس وأخبارهم، وأخبار رجالات الدولة السياسيين، والعسكريين، والإداريين، والدينيين، والعلماء، وعامة الناس.

انفرد المؤلف بذكر كثير منها دون غيره من المؤرخين، إذ لم نجدها في أي مصدر آخر، كما أضاف كمية ضخمة من تراجم الأعلام، وخاصة أعلام القرن التاسع، ممن عاصروهم، أو اتصل بهم والتفاهم، أو وقف على أحوالهم، ولم يذكرهم التنسي في كتابه الموسوم بنظم الدر والعقيان في بيان شرف آل زيان، مع كونهما شاهدين على الأحداث مع وصفه الممتع لكثير من مدن الدولة الزيانية التي زارها كتلمسان ووهران.

من خلال ما سبق يتبين لنا طبيعة الخلفية العلمية لكلا المؤلفين، فالتنسي تميز بعنايته الفائقة بالأدب من خلال مؤلفه نظم الدر والعقيان الذي تبين لنا أن أكثر من أربعة أخماسه عبارة عن قصائد وأشعار مروية وموصولة بأسانيدنا إلى أساطين الشعر والأدب في المشرق والمغرب والأندلس، مع تعمقه في الفقه المالكي، فكان من الفقهاء المبرزين في تلمسان، تدل على ذلك الألقاب التي حظي بها من المترجمين له، كالفقيه الجليل والفقيه المطلع، بالإضافة إلى الفتوى التي أبان فيها على سعة الدائرة في الحفظ والتحقيق، مع تعلقه بتفسير القرآن الكريم ورواية الحديث النبوي الشريف حتى لقب بالحافظ وهو لقب علمي يحوزه فقط من يحفظ أكثر من مائة ألف حديث متنا واسنادا، أما عبد الباسط فقد غلب عليه الاهتمام بالتاريخ بشكل ملفت، وذلك من خلال مؤلفاته التاريخية التي بلغت ستة مؤلفات، ثم علم الطب الذي طلبه من كبار الأطباء في تلمسان حتى بلغ فيه شأوا كبيرا جعله يؤلف فيه كتابا، مع جودته في نظم الشعر والنثر.

2. محمد بن أبي ثابت، من الثورة إلى السلطة (866-834هـ/1430-1462م)

1.2. محمد بن أبي ثابت وثورات البيت الزياني

عانت الدولة الزيانية من تدخلات جيرانها المرينيين من جهة الغرب، والحفصيين من جهة الشرق في شؤونها

الداخلية بل والسيطرة على تلمسان بالحروب وتنصيب فرد من أفراد البيت الزياني يكون مواليا لهم، ومن هؤلاء أحمد العاقل بن أبي حمو الذي أقامه السلطان أبو فارس عبد العزيز الحفصي (796-837هـ/1394-1434م)⁶⁹، منذ أكثر من ثلاثين سنة، ويبدو أن هذا الأمر قد أغضب البعض من البيت الزياني فقرروا التخلص من الوصاية الحفصية وعلان السيادة، وكان يقود هذا المشروع السياسي الطموح المستعين بالله أبي ثابت الزياني وابنه محمد، الذي ابتدأ بثورة وانتهى بإصلاح.

حيث شهد عهد أبو العباس أحمد العاقل الذي تولى الحكم من سنة (834هـ/1430م إلى 866هـ/1462م)⁷⁰، العديد من الثورات والتمردات والخروج عن الطاعة⁷¹، وقد علل التنسي سبب هذه الثورات أن الأمير أبو العباس أحمد العاقل كان في السنوات الأولى من حكمه حازما ثم تهاون، واستكان للوصاية الحفصية "وعجز عن النهوض وكل، وتلاشى ما كان له من الهيبة في النفوس واضمحل"⁷²، مما أدى إلى انتشار الثورات ضده، وأمام عجزه عن المواجهة، كثر الخارجون عليه سواء من البيت الزياني أو من قبائل زناتة و القبائل العربية "فاستولوا على الأوطان وكثر الثوار من الزناتية والعربان"⁷³، وأخطر هذه الثورات هي التي خرجت من البيت الزياني وأهمها:

1.1.2. ثورة أبو يحيى بن المولى أبي حمو التي دامت من سنة 838هـ/1435م إلى 852هـ/1448م

تعد ثورة أبو يحيى بن المولى أبي حمو التي انطلقت سنة 838هـ/1435م، من أخطر الثورات التي هددت سلطة أبو العباس أحمد، حيث دامت أربعة عشر سنة، تمكن فيها من الاستيلاء على أراضي شاسعة من الدولة الزيانية، منها مدينة وهران التي تملكها إلى غاية سنة 852هـ/1448م، ثم انهزم وفر إلى تونس حتى وفاته سنة 855هـ/1451م⁷⁴.

2.1.2. ثورة أحمد بن الناصر بن أبي حمو سنة 850هـ/1446م

انطلقت هذه الثورة ليلة سبعة وعشرون من رمضان سنة 850هـ/1446م، غير أن أحمد العاقل تمكن من القضاء عليها، في نفس السنة، ويبدو أن السبب في ذلك أنها ثورة لم تكن مدروسة بشكل كاف وأن أنصارها غلبت عليهم العاطفة مع قلتهم، حيث وصفهم التنسي بقوله: "وتألفت عليه طائفة من تلمسان وصرخوا بنصره، وهولوا بأطبال وأنفار"⁷⁵.

3.1.2. ثورة أبو عبد الله محمد المستعين بالله والد محمد بن أبي ثابت

وهي الثورة التي نجحت في إسقاط سلطة أبو العباس أحمد العاقل، وكانت على مرحلتين:

1.3.1.2. المرحلة الأولى

وهي المرحلة التي قادها وخطط لها والد المتوكل أبو عبد الله محمد المستعين بالله ابتداء من سنة 841هـ/1438م إلى سنة 843هـ/1440م، والتي انطلقت بتمهيد سوق حمزة وتحرير الجزائر بدعم من الثعالبية، ثم جهز جيشا لولده محمد وطالبا منه التوجه للسيطرة على متيجة والمدينة ثم بعدها إلى مليانه فأفتتحها وتمادى إلى تنس⁷⁶، وأمام هذه الفتوحات عظم أمر محمد الابن واتسع سلطانه، "فخطب له بالاستقلال في هذه

المدن كلها... وعظم سلطانه وأرتفع شأنه"⁷⁷، وفر إليه الكثير من بني عبد الواد من العاصمة تلمسان لتدعيمه وتشجيعه⁷⁸، فهال الأمر أحمد العاقل، وشعر أن تهديد المستعين بالله وابنه محمد أخطر من تهديد أبو يحيى المسيطر على مدينة وهران، رغم وصول الأخبار التي تفيد بتعرض المستعين بالله للقتل غدرا في الجزائر سنة 843هـ / 1440م⁷⁹، ولم يذكر التنسي هل لأحمد العاقل يد في هذا الاغتيال أم لا؟

2.3.1.2. المرحلة الثانية

وهي المرحلة التي قادها الابن محمد بن أبي ثابت ابتداء من سنة 843هـ / 1440م إلى سنة 866هـ / 1462م، فاستولى في هذه المرحلة على مواطن أخرى "... على وطن بني راشد⁸⁰ ثم على مواطن قبيلة هواره⁸¹ ثم افتتح مستغانم⁸² وتمرغان⁸³ ثم عمد إلى وهران فافتتحها ثم توجه إلى تلمسان فأقام عليها يومين ودخلها في الثالث، وهو يوم الاثنين أول جمادى الأولى⁸⁴.

وبناء عليه يمكن القول إن محمد بن أبي ثابت قد نجح في ثورته مستفيدا من أخطاء الثورات الأخرى التي قامت ضد أحمد العاقل بن أبي حمو من البيت الزياني، ومن أهمها:

- انطلاق الثورة من أطرف ونواحي تلمسان البعيدة متبعا سياسة التضييق على العاصمة حتى تتمكن منها، ذلك أن الدول تضعف من أطرافها حسب ابن خلدون⁸⁵، بخلاف ثورة أحمد بن الناصر بن أبي حمو التي انطلقت من تلمسان مركز الدولة فتم القضاء عليها في نفس السنة.

- الارتكاز على قاعدة صلبة من الأنصار مؤمنين بقضيتهم حيث ذكر التنسي أنهم غادروا تلمسان والتحقوا بثورة محمد بن أبي ثابت في النواحي والمدن التي سيطر عليها.

- الشمولية التي تميزت بها ثورة محمد بن أبي ثابت حيث مست جل المدن الشرقية والغربية للدولة الزيانية، بخلاف ثورة أبو يحيى بن أبي حمو التي تركزت بوهران، فكانت هذه الأسباب من العوامل المساعدة لمحمد بن أبي ثابت في انتصار ثورته والوصول إلى السلطة.

2.2. محمد بن أبي ثابت، من القيم إلى الاجراءات

يعتبر العفو من مكارم الأخلاق السامية، والعفو والتسامح خُلقان كريمان تحتاجهما النفس البشرية لتتخلص من كل الشوائب التي قد تعلق في القلب من أثر الأذى، وكذلك لينعم الأفراد بالخير والحب وانشرح الصدر، وهما إنمّا يتحققان بطولٍ صبرٍ وكظمٍ للغيظ واحتساب الأجر.

العفو لغة: مصدر عَفَا يَعْفُو عَفْوًا، فهو عَافٍ، وأصله المحو والطمس، وعفوتُ عن الحق أي أسقطته، كأنك محوته عن الذي عليه⁸⁶، أما اصطلاحًا: هو التجاوز عن الذنب وترك العقاب.

يشير التنسي أنه بعد سيطرت محمد بن أبي ثابت على تلمسان، أقدم على موقف من المواقف النادرة في الصراع على السلطة⁸⁷، ممثلا في العفو عن المعارضين السياسيين لتهدئة الأوضاع وبتث السكينة والطمأنينة بين أفراد البيت الزياني، ويمكن تقسيمه إلى قسمين عفو عام وعفو خاص:

عفو عام: وقد شمل سائر أبناء البيت الزياني الذين كانوا منفيين في الشرق والغرب، بسبب التنافس على

الحكم، ويبدو أن محمد بن أبي ثابت أراد أن يستفتح عهده بنشر العفو لتوثيق الروابط الاجتماعية في البيت الزياني التي تعرضت للوهن والانفصام بسبب الصراع على السلطة، فقام بجمعهم في تلمسان " بحضرته على أبر ما يكون من الاحسان واذرار النفقة وكفاية المؤونة"، وقد عدّها التنسي خصلة من خصاله ومآثرة من مآثره التي تفرد بها دون غيره "ولم يسبقه إليها أحد من أهل بيته"⁸⁸.

عفو خاص: وقد خص به خصمه اللدود أحمد العاقل الذي فر بعد هزيمته واستجار بقبر الولي شيخ الشيوخ أبي مدين شعيب بن الحسين الأنصاري (ت 594هـ/1197م)، فعفا عنه بعد تمكنه منه، ولم يعرض له بسوء، بل أحسن إليه وصرفه إلى الأندلس، بعيدا عن أعين الناس حتى لا يتعرض للأذى⁸⁹.

1.2.2. الاجراءات الداخلية

لا ريب أنّ تغليب العفو والتسامح على العقاب ينجي الأفراد من المنازعات الحادة التي قد تنشأ بينهم، إلا إذا تمادى أصحاب الأذى مع كثرة العفو وتكرّر ظلمهم وإساءتهم، فيكون الإصلاح في هذه الحالة أولى من العفو والتسامح لدفع الضرر الحاصل، وقد تسبب في هذا الضرر أحمد العاقل وانصاره بقيادة أحد وزراءه.

يذكر عبد الباسط بن خليل أن محمد بن أبي ثابت وصل إلى السلطة عن طريق ثورة قام بها ضد السلطان أحمد العاقل بن أبي حمو⁹⁰، ثم فر هذا الأخير إلى الأندلس ثم عاد وقد انجده صاحب غرناطة فقام بحصار محمد بن أبي ثابت هو وأنصاره، ويبدو أنه انتصر⁹¹، ولكن آخر الأمر مات فجأة⁹² لتعود الهزيمة على أنصاره.

أما الذين تم القبض عليهم سابقا فقد ثاروا بعد سماعهم بموت أحمد العاقل بن أبي حمو وتمكنوا من كسر الأغلال والخروج من السجن الموجود بجانب قصر محمد بن أبي ثابت وسيطروا على القصر وألقوا القبض على أحد أبناء المتوكل وهو عبد الله واتفقوا معه على خلع أبيه وتوليته مكانه فوافق في الظاهر، لينقلب عليهم في الصباح بإخبار المكلف بحراسة القصر عبد الرحمن بن النجار الذي تمكن من السيطرة على الوضع واعتقالهم، ولما حضر محمد بن أبي ثابت أمر بقتلهم، وعلقت رؤوسهم على أبواب تلمسان وكانوا أحد عشر نفرا وكان لهم يوما مشهودا⁹³.

2.2.2. الاجراءات الخارجية

كانت العلاقات مع بني زيان أصحاب تلمسان على حالها منذ وفاة السلطان أبي فارس عبد العزيز (ت 837هـ/1434م)، وكان أبا عمرو عثمان مشغولا بالشأن الداخلي، غير أن الأخبار الواردة من تلمسان سنة 866هـ/1462م، يبدو أنها أزعجت الحفصيين، بعد وصول محمد بن أبي ثابت إلى السلطة وإعلانه عن التحول السياسي في تلمسان: "فظهرت بينه وبين صاحب تونس وحشة أدت إلى أمور..."⁹⁴، أهمها عدم قبول الحفصيين بسيادة الزيانيين على تلمسان ورفض وصايتهم عليهم، فأرسلوا عديد الرسل والتهديدات بالتدخل العسكري في شؤون تلمسان، وسبب ذلك - حسب رواية الزركشي - أن أحمد العاقل كان مواليا للسلطان الحفصي أبو فارس عبد العزيز (837-796هـ/1394-1434م)⁹⁵، منذ أكثر من ثلاثين سنة، قد تم الانقلاب

عليه من قبل أحد أحفاد أخيه، وهو محمد بن أبي ثابت الزياتي، الذي قام بعدة إجراءات سياسية وسيادية يبدو أنها أغضبت حكام الدولة الحفصية ومنها: إعلان انفصاله عن التبعية الحفصية، واتخاذ الحاكم الجديد لتلمسان محمد بن أبي ثابت لقب المتوكل على الله.

3. محمد بن أبي ثابت، من السلطة إلى الإصلاح (873-866هـ/1461-1468م)

الإصلاح لغة: مأخوذ من الفعل (صلح)، فالصاح واللام والحاء أصل واحد يدل على خلاف الفساد، وصلاح كصلاح لغتان فالصلاح والصلوح بمعنى واحد، يقال: صلح يصلح ويصلح صلاحاً وصلوفاً فهو صالحٌ وصلیحٌ، والجمع صلحاء وصلوحو⁹⁶،

والصلاح: الحصول على الحالة المستقيمة النافعة، والإصلاح جعل الشيء على تلك الحالة، فالإصلاح نقيض الإفساد، وهو يدل على إزالة الفساد، والاستصلاح ضد الاستفساد، وأصلحه ضد أفسده، وقد أصلح الشيء بعد فساده⁹⁷.

أما في الاصطلاح: الإصلاح بأنه ضد الإفساد يختلف عن تعريف الإصلاح بين المتخصصين، وعن تعريف الإصلاح بمعنى البناء والتقويم، فالإصلاح هو: "إرجاع الشيء إلى حالة اعتداله بإزالة ما طرأ عليه من الفساد"⁹⁸.

يتبين إذن من هذه التعريفات اللغوية إقران الإصلاح والصلاح بنقيضيهما اللذين هما الإفساد والفساد، والتأكيد على أن الإصلاح هو تقويم نحو الأحسن، وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار الإصلاح بمثابة إرادة وفعل من وضع معين إلى وضع مغاير أفضل من سابقه، مع تثبيت أكبر قدر من المصالح العامة ودفع أكبر قدر من المفاسد، بما يعود بالنفع على الدولة والمجتمع ويحقق نهضته وتبويئه مكانة معتبرة في عديد المجالات.

1.3. الجانب السياسي

يبدو أن كلا المؤلفين التنسي الفقيه، وعبد الباسط الشاعر، قد شاركا في إبراز الشرعية السياسية للحاكم الجديد لتلمسان محمد بن أبي ثابت الزياتي، المتوكل على الله، كلا حسب تخصصه فكان للتنسي البحث في النسب الشريف⁹⁹، وهو الهدف الرئيس من تأليف كتابه الذي "يشتمل على التعريف بنسبه وسلفه الكريم، وبيان شرفه في الحديث والقديم، متبعا بجملة صالحه من مناقب الملوك ومآثرها"¹⁰⁰، والغرض إثبات شرعية الحكم والمساهمة في مشروع الحاكم الجديد المتمثل في رفع الوصاية الحفصية وإعلان السيادة الزيانية عن تلمسان.

ويمكن أن نحصر مصادر التنسي في اثبات النسب الشريف للحاكم الجديد لتلمسان في مصدرين مهمين وموثوقين بالنسبة للتنسي الفقيه، بالإضافة إلى يحيى بن خلدون الذي اعتمد عليه أيضا في اثبات الفكرة نفسها. **المصدر الأول:** هو الولي الصالح ابراهيم التازي (866هـ/1462م)، الذي كان - حسب التنسي - على حالة عظيمة ورتبة كريمة من إجلال الشرفاء المنتسبين لأهل البيت والتنويه بقدرهم والتنبيه على رفعة مكانهم، وكان يقول لأصحابه: تعظيم أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم من تعظيمه لأن حرمة صلى الله عليه وسلم ميتا كحرمة حيا¹⁰¹.

المصدر الثاني: هو الشيخ أبو عبد الله محمد العبدوسي (849هـ/1445م)¹⁰²، نزيل تونس نقلنا عن الفقيه الكاتب العلامة أبو عبد الله ابن الشيخ الصالح سيدي عيسى بن عبد السلام¹⁰³، الذي ذكر للتنسي نص الحوار الدائر بينه وإبراهيم التازي حول الشيخ العبدوسي إذ قال: "أن المتوكل أمير المسلمين طيب الله ثراه وجدد عليه رحماء، بعثه في أمر مهم يشاور فيه الشيخ سيدي إبراهيم فجرى بينهما من الكلام إلى أن قال له: سيدي والله إني لأحب هذا الملك وأوتره لكونه جمع خصالا من الخير الدالة على كمال العقل، ومناقب من السؤدد لم تتوفر في غيره وكفاه فضلا وسؤودا انتسابه للجناب العلي أهل بيت الرسالة ومقر السيادة والجلالة عليهم الصلاة والسلام، قال لي الفقيه أبو عبد الله: فلما سمعت هذا من سيدي إبراهيم ابتهجت به سرورا واستردته تثبيتا فقال لي: لما قفلت من بلاد الشرق ونزلت تونس، قصدت شيخنا الإمام سيدي العبدوسي، وذكرت له ما عزمت عليه من التوجه لتلمسان، فقال لي سيدي عبد الله: إن ملوكها من الشرفاء الحسينيين"¹⁰⁴.

ومن هذا المنطلق يذكر التنسي الاسم الكامل للحاكم الجديد فيقول: هو مولانا أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي ثابت بن أبي تاشفين عبد الرحمن بن أبي حمو موسى بن يوسف بن الأحمر بن يحيى بن يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد بن زيدان بن يندوكسن بن طاع الله علي بن يمل بن برجى بن القاسم¹⁰⁵. وأما نسبه فمن طريق القاسم وهو جد أمير المؤمنين اتفق النسب على أنه من ولد عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، لكن اختلفوا في طريق اتصاله به، إلى ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: من جهة القاسم بن ادريس بن ادريس بن عبد الله الكامل

الوجه الثاني: من جهة ابن محمد بن ادريس بن ادريس بن عبد الله

الوجه الثالث: من جهة ابن محمد بن عبد الله بن ادريس بن ادريس بن عبد الله

ثم يتفق مع صاحب البغية يحيى بن خلدون¹⁰⁶ على اعتبار الوجه الثالث هو الصحيح وأن القاسم هو ابن محمد بن أحمد بن محمد بن سليمان بن عبد الله الكامل¹⁰⁷.

بدأت السلطة الجديدة بتلمسان تفكر في أول فرصة تسنح لها بإعلان سيادة تلمسان وعدم تبعيتها للحفصيين، فكانت فرصة وصول رسول من صاحب تونس لتلمسان، فكلف صاحب الأشغال عبد الرحمن بن النجار¹⁰⁸، ضيفه عبد الباسط أن ينشده شيئا من نظمه في مدح صاحب تلمسان، محمد بن أبي ثابت المتوكل على الله، فنظم قصيدة في نحو أربعين بيتا، وكتب بها إليه، فلقبت صدا طيبا عنده، فدعاه إليه ورفع من محله وشكره عليها، ثم أمر صاحب الأشغال عبد الرحمن بن النجار بنسخ القصيدة بخط أحد الكتاب الجيدين، وأن يقرأها إنسان ذو صوت حسن بين يديه يوم عيد الفطر بحضور قاصد صاحب تونس، وكانت القصيدة تحتوي على أربعين بيتا لم يبق منها في ذاكرة عبد الباسط سوى هذين البيتين¹⁰⁹.

أعني الملك الذي شاعت مكارمه *** من آل زيان أقيال أماجيد

هم الملوك وأبناء الملوك ومن يقل *** سوى ذاذك القول مردود

وفي أول أيام عيد الفطر من سنة 869هـ/1465م، قرئت القصيدة بحضرة السلطان محمد بن أبي ثابت وبحضور رسول صاحب تونس، وسمعا المأ العام ممن حضر في القصر عند السلطان، واثوا على قائلها، ووقعت لدى السلطان الزياني موقعا طيبا لا سيما أن فيها تعريضا بصاحب تونس، وعلان صريح بسيادة تلمسان ورفض الوصاية الحفصية عليها.

وأمام هذه المستجدات فقد اعتبر السلطان الحفصي أبي عمرو عثمان (893-839هـ/1435-1488م)، هذه الاجراءات من قبل المتوكل على الله في تلمسان تحديا للدولة الحفصية، مما جعله يقرر التدخل العسكري المباشر في تلمسان، وفي هذا الشأن يقول الزركشي بأن السلطان الحفصي جهز جيشا "بجميع عرب افريقية، عظيم المدد مجهول العدد"¹¹⁰، غير أن هذه الحملة انتهت بالصلح مع محمد بن أبي ثابت والاعتراف به حاكما على تلمسان ليتم نقضه بعد عامين من توقيعه أي سنة 871هـ/1465م، وعلان استقلال تلمسان من الوصاية الحفصية للمرة الثانية، ولم يقف التنسي عند هذا الحد بل بشر بفتوحات تتلوها فتوحات بعد هذا الاعلان لمولاه محمد بن أبي ثابت المتوكل على الله في قصيدة قال فيها:

سيتلوه فتح بل فتوح كثيرة *** يقصر عنها العد والحصر والضبط

ويظفر مولانا بشرق ومغرب *** بدولة ملك تستمر وتمتط¹¹¹.

وفي الأخير يمكن القول إن رأي التنسي في اثبات النسب، وخاصة في هذه المرحلة الحرجة التي تمر بها الدولة الزيانية، يعد جزءا من المشروع السياسي الذي صاغه دالا على محورية السياسة الدينية في استقرار السلطة السياسية من جهة، ولتحقيق مصالح الناس وسعادتهم من جهة ثانية، كون اثبات النسب قوة دينية تضيف المزيد من الشرعية السياسية للحاكم الجديد لتلمسان محمد ابن أبي ثابت، الذي تمكن من مواجهة الحفصيين وعلان عدم التبعية لهم.

2.3. المظاهر العمرانية

يشكل التاريخ العمراني أهمية لا يستهان بها باعتباره فرع من فروع التاريخ، مثله مثل التاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي، ذلك أن معرفة الطوبوغرافية التاريخية بالنسبة للباحث الذي يريد دراسة التاريخ الديني والعسكري والاقتصادي والاجتماعي للمدن تعد أمرا لا مفر منه، إذ لا بد له أن يحدد المعالم العمرانية التي جرت فيها الوقائع والأحداث ويبينها.

ونظرا لأهمية العمران بالنسبة للدولة حيث يعد من مظاهر عظمتها وواجباتها، توجهت اهتمام الخلفاء إليه، بل اعتبر شرطا من شروط الاجتماع الإنساني، بالإضافة إلى كونه يحقق غرضين مهمين للدولة هما: القوة العسكرية، والرخاء الاقتصادي والمادي، وفي هذا قيل: "الملك بالجند والجند بالمال والمال بالعمارة"¹¹².

وانطلاقاً من هذه الأهمية نجد أن محمد بن أبي ثابت المتوكل على الله، كان يشرف بنفسه على مراقبة أشغال البناء والتعمير في تلمسان والمدن الأخرى، خاصة ما تعلق منه بالعمران العسكري تحسباً لأي عدوان حفصي¹¹³، ومنها:

1.2.3. بناء البرج العظيم

في أوائل شعبان من سنة 869هـ/1465م. بناء صاحب تلمسان في بناء برج عظيم على باب تلمسان وأخذ في قطع ما جانب الباب من خارجه من الأشجار واجتهد في تحصينها وتفقد أسوارها وجد في العمل في إنشاء هذا البرج حتى انهاء في أواخر هذا الشهر¹¹⁴، وفي نفس الشهر بعد نهاية البرج خرج صاحب تلمسان إلى المكان الذي يقال له جبل بني تسول وبه حصن منيع فنقله وأشيع بأنه قصد أن يبعث بحريمه وذخائره إليه إذا بلغه مجيء صاحب تونس إليه¹¹⁵.

2.2.3. تحصين بناء السور

يعتبر السور والبرج والحصن من أهم المعالم العمرانية في المدينة، وأبرز سمات تخطيط المدن في العصر الوسيط¹¹⁶، وكلما زادت الاشاعات وكثرت الأراجيف بتلمسان بحركة صاحب تونس لجهة تلمسان، أخذ صاحبها المتوكل في أسباب تحصين تلمسان بتفقد سورها بالبنين وكذا بيني برجا على بابها أو نحو ذلك¹¹⁷. بالإضافة إلى العمران العسكري الذي اعتنى به محمد بن أبي ثابت ووقف عليه بنفسه رداء لأي تدخل حفصي، كان للوحدات الطبوغرافية الدينية جانب آخر من اهتمامات سلطان تلمسان وكان على رأسها بناء زاوية من اهم الزوايا التي عرفت الدولة الزيانية ألا وهي زاوية أبي سالم إبراهيم التازي.

3.2.3. بناء زاوية إبراهيم التازي

تطلق الزاوية على البناية ذات الطابع الديني والثقافي، تقام فيها الصلوات الخمس، فضلا عن الدروس التي كانت تلقى على الطلاب والمريدين، فهي تاوي المتجولين وتطعم المسافرين وهي مدرسة يقصدها المريدون إلى الشيخ¹¹⁸.

سكن إبراهيم التازي بعد عودته من رحلة الحج بزواية الولي القطب الغوث الكبير أبو عبد الله محمد بن عمر الهواري، صاحب الزاوية المشهورة بوهران، وكان الهواري يعظمه ويثني عليه ويقدمه على جميع أصحابه، بل على ولده أيضا، وبعد وفاة صاحب الزاوية محمد الهواري سنة 843هـ/1439م، رأى ولده التقاف الناس حول إبراهيم التازي وتعظيمه له، فبقي يعرض من الشيخ في الباطن وأحس إبراهيم بذلك، فأراد عدم التشويش على ولد شيخه، فبدا له أن يخرج من الزاوية، مراعاة لخاطر ولد شيخه، فخرج إلى مكان بالبلد¹¹⁹، فصرف الناس وجوههم إليه بذلك المكان وقصدوا به وتركت الزاوية من ورود الناس إليها¹²⁰.

ولما كثر الناس على الشيخ إبراهيم التازي في مكانه الجديد اقترح عليه أحد أعيان وهران من مترفيا ومنفقيها - حسب تعبير عبد الباسط- يقال له محمد بن موسى، وكان محبا للشيخ، وله ثروة ظاهرة وأملاك وغير ذلك، بأن ينشئ زاوية له، وأعطاه قطعة كبيرة من الأرض بوسط البلد في حيز جوار داره، بها بعض

أملك له وأبنية، فتمنع الشيخ ابراهيم التازي من ذلك، وقال له هذا يحتاج إلى مال كثير ونحن فقراء، وما لنا وللعمارة¹²¹.

4.2.3. الشروع في البناء

شرع أهل وهران في العمارة، ووضع اللبنة الأولى لزواية إبراهيم التازي، وقاموا في ذلك بقلوبهم وقوالبهم وهمهم، وبلغ ذلك صاحب تلمسان محمد بن أبي ثابت، فأمدّه بمال وبما يحتاج إليه، وبعث إليه تجار تلمسان بمال أيضا، وبقي يزداد الأمر في ذلك، وينمو المال من غير طلب ولا سؤال، ولا خطورة ببال، وغير ذلك من كرامات الشيخ، وجمع مال له صورة، كان في الحقيقة سببا لعمارة وهران¹²².

5.2.3. وصف الزاوية ولواحقها

كانت الزاوية زاوية أنيقة حسنة، بديعة الشكل والصفة، معلقة يصعد إليها بالدرج، نزهة شرحة، ولها منار للآذان لطيفة، وشبابيك مطلة على البلد والبحر، في غاية اللطافة والظرافة، وأنشأ بجوارها منزلا حسنا، أنيقا ظريفا، غريب الهيئة والوضع، اعده لسكنه، وبأحوازها مدرستين وخزانة للكتب جليلة، في سائر الفنون العلمية، ويذكر عبد الباسط أنه أوقف بالخزانة جملة من الكتب نحو من الأربعين مجلدة حصلها من بلاد الأندلس مما كان معه¹²³، بالإضافة إلى حمام أجري إليه الماء، وكانت وهران قليلة الماء، يجري بها مجرى واحد فقط، يستسقي منه أهل البلد بالقلال والجرار، مع زحمة عظيمة، وسباق في بعض الأحيان، فصارت وافرة المياه، أدخل منه للبلد مجرة عظيمة، ومع توافر الماء بني الحمام وميضاة في زاويته، وبذلك صارت الزاوية جمعا معتبرا يؤنس به البلد، وبني تحت الزاوية وفي احوازها الكثير من الحوانيت وصار ذلك المكان أعظم أمكنة وهران¹²⁴.

يذكر عبد الباسط أن مدينة وهران عمرت سبب الوحدات الطبوغرافية التي بنيت بها وعلى رأسها هذه الزاوية التي تداعى صيتها وزاد حسننها، خاصة بعدما رتب لها إماما ومؤذنا وتسامع الناس بها من كل مكان حتى من الأندلس الذين هرعوا إليها واختاروا سكنها، وعمرها خارجها أيضا بالكروم والعنب والتين وغير ذلك¹²⁵.

وعند الانتهاء من بناء هذا الصرح الثقافي، قدم محمد بن أبي ثابت إلى وهران لزيارة زاوية الشيخ ودخلها وطلع إليه، وطلب دعاءه، وجلس بين يديه بأدب وسكون ووقار، وحضر جماعة من أعيان وهران وكانوا وقوفا بين يدي الشيخ والسلطان، فالتفت السلطان إليهم وقال: أنا في بركة الشيخ وهذه البلدة في الحقيقة للشيخ، هو الذي أنشأها، ثم سأله عن حوائج ليتولى قضاءها فقال له: الله يقضي حوائجي وحوائجك، المقربة لنا إليه، ثم وادعه وخرج من عنده¹²⁶.

ويبدو أن اهتمام السلطة الزيانية ببناء الزاوية والاهتمام بشيخها إبراهيم التازي قد ضاعف من تأثيرها على العامة والخاصة، ومنهم عبد الباسط بن خليل الذي حصل له بعض التوجه إلى ذلك الجناح - حسب تعبيره - ثم تحسر عليه بقوله: "فيا ليت لو دام، فإننا لله وإنا إليه راجعون"¹²⁷، وبعد رجوعه من الأندلس إلى وهران جلب معه جملة من الكتب، حصلها بتلك البلاد نحو الأربعين مجلدة، وقفها بزوايته¹²⁸.

3.3. النشاط الثقافي

أحاط الحاكم الجديد للدولة الزيانية نفسه بثلة من كوادر واطارات تلمسان ووهران مبرزين في العلوم النقلية والعقلية، من علماء وفقهاء وأولياء وأطباء، كان لهم دور بارز في تحقيق مشروع محمد بن أبي ثابت الزياتي، المتمثل في قيام دولة زيانية مستقلة بنفسها عن الحفصيين، فحرص على تقليدهم أعلى وأهم المناصب في دولته.

وقد قام عبد الباسط بالسعي إلى التعرف إليهم ملاقاتهم والاستفادة منهم، أثناء وجوده في تلمسان ووهران، كما حرص على الترجمة لهم والتعريف بهم بذكر أسمائهم وبيان مكانتهم العلمية والمناصب التي تقلدوها والمهام التي أوكلت لهم من قبل السلطان محمد بن أبي ثابت سواء على المستوى السياسي أو الثقافي أو الصحي، وبناء عليه يمكن تقسيمهم إلى ثلاث طبقات علمية متخصصة، وهي:

1.3.3. طبقة الفقهاء

وهم جماعة من كبار فقهاء وعلماء تلمسان ووهران ساهموا في ازدهار الحياة الثقافية في عهد السلطان محمد بن أبي ثابت، ذكرهم عبد الباسط واحتفى بمكانتهم العلمية، وذكر وظائفهم ومنهم: أبا عبد الله محمد العقباني (1467هـ/871م)¹²⁹، قاضي الجماعة الشيخ العالم الفاضل¹³⁰، كلف من قبل حاكم تلمسان بمهام سياسية حيث جعله سفيرا بينه وبين صاحب تونس حول معاهدة الصلح¹³¹، وأبا سالم العقباني المتوفى سنة 880هـ/1475م، خطيب جامع تلمسان الأعظم وإمامه¹³²، والشيخ العالم محمد بن مرزوق (901هـ/1495م)¹³³، والشيخ محمد بن زكري (899هـ/1493م)، مفتي تلمسان¹³⁴، وأبو عبد الله محمد بن العباس (871هـ/1467م)، خطيب جامع العباد¹³⁵.

2.3.3. طبقة الأولياء

1.2.3.3. أبو سالم إبراهيم التازي (ت 866 هـ/1462 م)¹³⁶

كان لإبراهيم التازي مكانة كبيرة كولي صالح ذاعت خلالها محاسنه حتى أن عبد الباسط لما زار وهران كان الغرض من زيارته الالتقاء به، يقول عنه: "نزىل وهران، لم ألتق به، وإنما أدرك أصحابه، لما سمعت بمحاسنه وقصدت زيارته ورؤيته فلم يقدر لي لوفاته بوهران في شوال، وأدركت عددا من أصحابه"¹³⁷.

ونقل تلميذ التنسي ابن سعد¹³⁸ أن حاكم تلمسان محمد بن أبي ثابت كان يحرص على مشاورته والأخذ برأيه، حيث قال: في ذلك حدثني الفقيه الكاتب العلامة أبو عبد الله ابن الشيخ الصالح سيدي عيسى بن عبد السلام أن مولانا المتوكل أمير المؤمنين طيب الله ثراه وجدد عليه حماه بعثه في أمر مهم يشاور فيه الشيخ سيدي إبراهيم.

وقد ذكر عبد الباسط جملة من أصحابه، ومنهم أبو العباس أحمد بن العباس¹³⁹، المالكي الشيخ الإمام، العالم، الكامل، مفتي و خطيب جامع البيطار بوهران، وهو من كبار أهل العلم والفضل بهذه المدينة¹⁴⁰، وأبو عبد الله محمد بن القصار التلمساني (ت 874هـ/1470م)، نزىل وهران، كان من أهل العلم والفضل صوفيا

خيرا دينا فاضلا متعبدا صحب الشيخ إبراهيم التازي مدة وتسلك عليه، وكان من أعز أصحابه عنده¹⁴¹، والشيخ عبد الرحمن بن عزوز¹⁴²، إمام زاوية سيدي إبراهيم التازي الماضي الذي زاره، وهو من كبار أهل العلم والفضل بمدينة وهران من أصحاب سيدي إبراهيم التازي¹⁴³.

2.2.3.3. أحمد بن الحسن الغماري (ت 874هـ/1470م)¹⁴⁴

من المواقف التي رآها عبد الباسط في تلمسان هي رؤيته لصاحب تلمسان محمد بن أبي ثابت يطرق دارا مقابلة للجامع الأعظم بتلمسان وكانت هذه الدار للشيخ الصالح الولي الكبير الشهير الخطير العابد الزاهد السالك الناسك سيدي أحمد بن الحسن، فترجل عن فرسه ووقف بباب الشيخ ثم طرق بلطف فقال الشيخ من داخل المكان من فقال له عبدك بن أبي ثابت بهذه العبارة ففتح له الباب فساعة وقوع بصر السلطان عليه أهوى لتقبيل يده ثم دخل إليه فزاره ثم خرج¹⁴⁵.

وفي المقابل كان الولي الصالح أحمد بن الحسن الغماري يتفرس فيه الخلافة ويقول لأصحابه لمن حضر: "لهذا العقل الذي خص الله به هذا الشاب المبارك يصلح للخلافة وكلام هذا معناه، سمعته منه وبلغني عنه مرات عديدة، وكأنه كوشف بولايته، خلافة الأمة وإقامته قسطا من العدل في الرعية أدام الله للإسلام دولته وأيد نصره وأعلى كلمته"¹⁴⁶.

كما كان للغماري دورا فاعلا في الحفاظ على استمرارية خلافة محمد بن أبي ثابت لما تصدى هو وجماعة من الفقهاء للحملة الحفصية على تلمسان سنة 871هـ/1467م، وطالبوا بالصلح بدل الحرب والخراب الذي قد يطال الطرفين، فما كان من السلطان الحفصي إلا الإذعان للولي أحمد بن الحسن الغماري بقبول الصلح للمرة الثانية مقابل شروط مرتبطة بالسكة والخطبة، والعودة إلى تونس¹⁴⁷.

وما يسترعي الانتباه، ويدعو إلى الدهشة أن عبد الباسط بن خليل ومن خلال مشاهداته وتنقلاته بين الوحدات الطبوغرافية لمدينة تلمسان من مساجد ومدارس وزوايا ولقائه بعدد العلماء والفقهاء وأعيان البلد إلا أنه لم يذكر الفقيه التنسي، ولم يشر إليه لا من قريب ولا من بعيد، مما يثير التساؤل عن وجود التنسي في تلمسان أو خارج حدود الدولة الزيانية وقتذاك؟

3.3.3. طبقة الأطباء

الطب هو علم يتعرف منه أحوال بدن الانسان من جهة، ما يصح ويزول عن الصحة ليحفظ الصحة حاصلة ويستزدها زائلة¹⁴⁸، يعرفه ابن خلدون¹⁴⁹ بأنه: "صناعة تنظر في بدن الانسان من حيث المرض والصحة، فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبرء المرض بالأدوية والأغذية".

وقد زحرت تلمسان في عهد محمد بن أبي ثابت بمجموعة من الأطباء المهرة على رأسهم موسى بن صموئيل الاسرائيلي المالقي، الذي وصف بالطبيب الرئيس الماهر في العلم، ولد بمالقة قبل سنة 820هـ/1417م، وانتقل إلى تلمسان فقطنها، لازمه عبد الباسط مدة وأخذ عنه نبذة كبيرة نافعة في الطب، وأخذ اجازته، أصبح رئيس الأطباء في تلمسان، بعد تقليده منصب الطبيب الخاص بحاكم تلمسان محمد بن

أبي ثابت الزياني¹⁵⁰، مما جعله مقصد الكثير من طلاب العلم، بالإضافة إلى علي بن قشوش أحد أطباء تلمسان في المزولة والدرابية، من الذين حضر عبد الباسط دروسهم وسمع من فوائدهم، ونقل عنه وأجازه¹⁵¹، ونظيف الرومي المتوفى سنة 1467/871م كان أسيرا ببلاد الفرنج وهرب إلى وهران فلزمه عبد الباسط وأخذ عنه شيئا في الطب والفقہ أيضا¹⁵²، وقد نتج عن ازدهار مهنة الطب بتلمسان وحواضر المغرب الأوسط توفر أنفع الخدمات والحصول على كل ما يحتاجه الطلبة من مادة علمية ومن أدوات البحث وعناوين لمصنفات الطب والصيدلة¹⁵³.

خاتمة

من حصاد ما سبق يمكن القول أن كلا من التنسي وعبد الباسط بن خليل قد قدما صورة واضحة المعالم لتاريخ الدولة الزيانية في عهد السلطان محمد بن أبي ثابت، والتي مرت بمرحلتين، مرحلة الثورة التي نجحت به في الوصول إلى السلطة، ثم مرحلة الإصلاح شملت المستوى السياسي والعمراني والثقافي، وذلك من خلال مؤلفاتهما، فالتنسي الذي ألف كتابا يعد ضمن كتب الآداب السلطانية التي تعتنى بالجانب السياسي و الشرعية السياسية، أبرز من خلاله الصفات الحميدة وعلى رأسها اثبات النسب الشريف وكلها صفات مؤهلة لأن يكون محمد بن أبي ثابت حاكما شرعيا وصالحا، تمهيدا لقاعدة صلبة ينطلق منها نحو بناء دولة قوية مستقلة لها القدرة على مواجهة الحفصيين.

في حين جاء كتاب عبد الباسط بن خليل الموسوم بالروض الباسم في حوادث العمر والتراجم، والذي زار المغرب الأوسط في عهد محمد بن أبي ثابت المتوكل على الله، عبر لنا فيه عن مشاهداته حتى سنة 1467/871م، من خلال تقديمه صورة قريبة جدا عن حواضر الدولة الزيانية تلمسان ووهران، مع ذكره لبعض مواقف المتوكل على الله السياسية والعسكرية المرتبطة برفض الوصاية الحفصية، حيث قدم لنا وصفا دقيقا وواضحا للوحدات الطبوغرافية المرتبطة بالشأن العسكري التي أمر السلطان الزياني ببنائها كبناء الحصون والأسوار لمجابهة أي تدخل عسكري حفصي.

كما شهدت الدولة الزيانية ثلاث طبقات علمية كانت تنصدر المشهد الثقافي والعلمي، وهم الفقهاء الذين حرص عبد الباسط على الالتقاء والتعريف بهم، مع ذكر المناصب التي تقلدوها في الدولة، بالإضافة إلى الطبقة الثانية ممثلة في الأولياء كالولي إبراهيم التازي، الذي كان له دور فعال في نشر العلوم والعناية بطلبة العلم وعابري السبيل، انطلاقا من زاويته التي بناها في وهران بدعم من السلطة الزيانية، والولي أحمد بن الحسن الغماري، الذي كان له دورا كبيرا في الحفاظ على استمرارية الدولة، أما الطبقة الثالثة فهي طبقة الأطباء الذين كان لهم كبير الأثر في ازدهار صناعة الطب وأدواتها، وبذلك ترك لنا عبد الباسط تلك الوثيقة المهمة الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم، التي تقوم على رؤية شاهد عيان لأحداث عصره وتحليله لها ورأيه فيها مما يجعل لهذا الكتاب أهمية خاصة جديرة بالبحث والدراسة في تاريخ الدولة الزيانية.

- 1 عبد العزيز فيلالي: تلمسان في العهد الزياني (دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية)، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر 2002م، ج1/ص 16.
- 2 خالد بلعربي: الدولة الزيانية في عهد يغمراسن، دراسة تاريخية حضارية 633هـ-681هـ/1235-1282م، دار الألفية للنشر والتوزيع، الجزائر 2011م، ص 63.
- 3 عبد الحميد حاجيات: أبو حمو موسى الثاني، حياته وآثاره، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1974م، ص 30.
- 4 أبو عبد الله محمد بن احمد بن الشماخ: الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق وتقديم الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، 1984م، ص ص 112-119.
- 5 عبد العزيز فيلالي: المرجع السابق، ج1/ص ص 71-72.
- 6 في مقابل المصادر توجد المراجع، والتي تعرف بالأوعية الموضوعية ليرجع إليها أو للاستشارة بشأن المعلومة أو فيما يخص معلومة معينة أو استجابة لموقف معين أو مشكلة معينة تتطلب تلك المعلومات، للمزيد أنظر، زهران محمد جبر عبد الحميد: أصول البحث ومناهجه (آليات وتأسيس)، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، أسيوط، 2005م، ص 98.
- 7 عبد العزيز فيلالي: تاريخ الغرب الاسلامي، دراسة تحليلية لمصادره ومؤرخيه، منشورات مخبر البحوث والدراسات في حضارة الغرب الاسلامي، جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة 2، دار الهدى للطباعة والنشر 2019م، ص 7.
- 8 نقلا عن ناصر الدين سعيدوني: أساسيات منهجية التاريخ، دار القصة للنشر، الجزائر 2000م، ص ص 36-37.
- 9 مركز تراث للبحوث والدراسات، جمهورية مصر العربية 2014م، ص 53.
- 10 زين الدين عبد الباسط بن خليل بن شاهين الحنفي: نيل الأمل في ذيل الدول، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت 2002م، ج6/ص 128.
- 11 أسد رستم: المرجع السابق، ص 54.
- 12 وهي الفترة التي زار فيها عبد الباسط بن خليل المغرب الأوسط ودون مشاهداته وملاحظاته في كتابه الروض الباسم بشكل موسع، بالإضافة إلى مؤلفاته التاريخية الأخرى كنييل الأمل في ذيل الدول والمجمع المفنن بالمعجم المعنون، أنظر، عبد الباسط: نيل الأمل، ج6/ص 148.
- 13 ابن مريم المديوني التلمساني: البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، تحقيق عبد القادر بوياية، دار الكتب العلمية، بيروت 2014م، ص 429.
- 14 تنس من أقدم مدن المغرب الأوسط وهي واقعة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط على بعد 204 كلم غربي العاصمة الجزائر، و161 كلم شرقي مدينة مستغانم، وقد أسس مدينة تنس بعض البحارة الاندلسيين سنة 262هـ/876م، وقد ألحقت المدينة على التوالي بملكات الدول التي سيطرت على المغرب الأوسط كالدولة الفاطمية ثم الدولة الحمادية ثم الدولة المرابطية ثم الدولة الموحدية إلى أن أصبحت تابعة للدولة الزيانية، للمزيد أنظر، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت 1977م، ج2/ص 48.
- 15 شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل، بيروت 1992م، ج8/ص 120.
- 16 محمد بن عبد الله التنسي: تاريخ بني زيان، ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، حققه وعلق عليه محمود آغا بوعياذ، موفم، الجزائر، 2011م، مقدمة المحقق، ص 10.
- 17 أحمد بن محمد المقرئ التلمساني: نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت 1988م، ج3/ص 312.
- 18 المصدر نفسه، ج6/ص 195.

- 19 ابن عبد الكبير: فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشیخات والمسلسلات، اعتناء إحسان عباس، الطبعة الثانية، دار الغرب الاسلامي، بيروت 1982م، ج1/ص168.
- 20 السخاوي: المصدر السابق، ج7/ص50.
- 21 التتبكتي، أحمد بابا: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، إشراف وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة، طرابلس 1989م، ص 78.
- 22 التتبكتي: المصدر نفسه، ص306.
- 23 أبو القاسم محمد بن الشيخ أبي القاسم الحفناوي الديسي بن إبراهيم الغول: تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيبير فونتان، الجزائر 1906م، ج2/ص573.
- 24 ابن سعد: روضة النسرین في التعريف بالأشیاخ الأربعة المتأخرين، مراجعة وتحقيق يحيى بوعزيز، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر 2009م، ص 135، اسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين، وأسماء المؤلفين، وآثار المصنفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1955م، ج2/ص89.
- 25 التتبكتي: المصدر السابق: ص224.
- 26 ابن سعد: روضة النسرین، ص137-184.
- 27 التتبكتي: نيل الابتهاج، ص573.
- 28 وفيها ذكر لشيخه ومروياته، وأثباته وقد ذكرها عبد الحي الكتاني في كتابه فهرس الفهارس، ابن عبد الكبير: فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشیخات والمسلسلات، اعتناء إحسان عباس، الطبعة الثانية، دار الغرب الاسلامي، بيروت 1982م، ج1/ص168.
- 29 التتبكتي: نيل الابتهاج، ص573.
- 30 التتبكتي: المصدر نفسه، ص329، المقري: نفع الطيب، ج6/ص513.
- 31 المدرسة اليعقوبية: شيد هذه المدرسة السلطان أبو حمو موسى الثاني، وسماها باليعقوبية تخليدا لذكرى والده أبي يعقوب يوسف الذي كان حاكما بمدينة الجزائر، والذي توفي سنة 763هـ/1362م، ودام بناؤها حوالي سنة ونصف، كما أسس إلى جانبها زاوية ومقبرة مخصصة لآل زيان، للمزيد أنظر: يحيى بن خلدون: بغية الرواد، تحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر 1981م، ج1/ص203.
- 32 أحمد بن يحيى: وفيات الونشريسي، تحقيق محمد بن يوسف القاضي، شركة نوابغ الفكر للنشر والتوزيع، القاهرة 2009م، ص 111.
- 33 المصدر السابق، ص 572.
- 34 ابن مخلوف: أبو القاسم محمد بن الشيخ أبي القاسم الحفناوي الديسي بن إبراهيم الغول: تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيبير فونتان، الجزائر 1906م، ج1/ص385.
- 35 الونشريسي: الوفيات، ص 111-112.
- 36 محمد بن عبد الله التنسي: تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، حققه وعلق عليه محمود آغا بوعياذ، موفم للنشر، الجزائر 2011م، ص 37.
- 37 تحت رقم 2536.
- 38 فهرس مخطوطات المكتبة القاسمية زاوية الهامل بوسعادة، رقم 199.
- 39 رقم 902د، الموجود منه النصف الأول فقط في 202 ورقة، ورقم 453، ورقم 483، للمزيد أنظر، بدر المقري: شذرات من مخطوطات علماء الجزائر المحفوظة في الخزنة العامة والخزنة الحسنية بالرباط، مجلة الآداب، العدد 04، جامعة محمد الأول، وجدة 1994م، ص 328.

- 40 النسخة الأولى تحتوي القسم الأول والثاني، رقم 1875، والنسخة الثانية تحتوي أبواب من القسم الثاني والقسم الثالث والرابع والخامس، رقم 1876، وهما النسختين المعتمدتين في هذا البحث.
- 41 وفيه التعريف بنسبه الشريف وهو من سبعة أبواب: الباب الأول: في ذكر نسبه الشريف، الباب الثاني: في بيان شرف العرب وخصوصا المضرية منهم، الباب الثالث: في بيان شرف قریش وخصوصا عبد مناف، الباب الرابع: في بيان شرف بني هاشم وخصوصا الطالبين، الباب الخامس: في بيان شرف علي وبنيه وخصوصا الحسن والحسين، الباب السادس: في بيان شرف عبد الله الكامل وبنيه، وخصوصا الادارسة منهم، الباب السابع: في شرف بني زيان وتتبع ملوكهم إلى دولة مولانا المتوكل في آخر الزمان، للمزيد أنظر أبو عبد الله محمد بن عبد الجليل التنسي: مخطوط نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، المكتبة الوطنية بباريس، رقم 1875.
- 42 تحت عنوان تاريخ دولة الادارسة من كتاب نظم الدر والعقيان، حققه وعلق عليه عبد الحميد حاجيات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984م.
- 43 تحت عنوان تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، حققه وعلق عليه محمود آغا بوعياد، موفم للنشر، الجزائر 2011م
- 44 محمد بن عبد الله التنسي: مخطوط نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، المكتبة الوطنية بباريس، رقم 1875، الورقة 3.
- 45 التنسي: مخطوط نظم الدر والعقيان، الورقة 81.
- 46 تم تحقيقه بعنوان، نظم الدر والعقيان، القسم الرابع في محاسن الكلام، تحقيق نوري سودان، نشر فرانس شتاينر بقسبادن، بيروت 1980م.
- 47 محمد بن عبد الله التنسي: مخطوط نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، المكتبة الوطنية بباريس، رقم 1876، و127-275.
- 48 العقل السياسي العربي، محدداته وتجلياته، الطبعة الرابعة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2000م، ص 350.
- 49 أنظر على سبيل المثال الباب الثالث من القسم الثاني والموسوم ب "الخطة التي هي روح خصال الملك المحمودة وهي العدل"، التنسي: مخطوط نظم الدر والعقيان، رقم 1876م، الورقة 143.
- 50 هاني عبادي محمد سيف المغلس: الطاعة السياسية في الفكر الإسلامي، النص والاجتهاد والممارسة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية، 2014م، ص 357.
- 51 المغلس: المرجع نفسه، ص 357.
- 52 التنسي: مخطوط نظم الدر والعقيان، رقم 1875، الورقة 81.
- 53 التنسي: تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقدمة المحقق، ص 53-54..
- 54 المصدر نفسه، ص 290.
- 55 محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، أبو البركات: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1984م، ج4/ص374.
- 56 للمزيد أنظر غرس الله خليل بن شاهين: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، اعتنى به وصححه بولس راويس، المطبعة الجمهورية، باريس 1893م، ص 4.
- 57 السخاوي: المصدر نفسه، ج9/ص266.
- 58 المصدر نفسه، ج1/ص26.
- 59 المصدر نفسه، ج4/ص73.
- 60 تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 1987م.
- 61 تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، دار الكتب، بيروت 1988م.

- 62 تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، 1992م.
- 63 تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت 2002م.
- 64 تحقيق عبد الله محمد الكندري، دار البشائر الإسلامية، الكويت 2011م.
- 65 تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت 2014م.
- 66 تحقيق وتعليق حسن حبشي، لجنة احياء التراث الإسلامي، القاهرة 1998م.
- 67 تحقيق وتعليق حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2002م.
- 68 عبد الباسط بن خليل بن شاهين الحنفي: **الروض الباسط في حوادث العمر والتراجم**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت 2014م، ج1/ص48.
- 69 ابن الشماخ: **المصدر السابق**، ص ص 112-119.
- 70 التنسي: **تاريخ ملوك بني زيان**، ص 248.
- 71 للمزيد حول معرفة الفرق بين مصطلحات الثورة والتمرد والفتنة ينظر، محمد مختار الشنقيطي: **الأزمة الدستورية في الحضارة الإسلامية**، من الفتنة الكبرى إلى الربيع العربي، تقديم راشد الغنوشي، منتدى العلاقات العربية والدولية، قطر 2018م، ص ص 74-91.
- 72 التنسي: **المصدر السابق**، ص 247.
- 73 **المصدر نفسه**، ص 248.
- 74 **المصدر نفسه**، ص 249.
- 75 والتي تم القضاء عليها في نفس العام، التنسي: **المصدر نفسه**، ص 253.
- 76 **المصدر نفسه**، ص 251.
- 77 **المصدر نفسه**، ص 251.
- 78 عبد العزيز فيلالي: **المرجع السابق**، ج1/ص72.
- 79 التنسي: **المصدر السابق**، ص 251.
- 80 وكانت مواطنهم بالصحراء بالجبل المعروف براشد اسم أبيهم. زحف بنو راشد هؤلاء من بطونهم بجبل راشد إلى بسائط مديونة وبنو ورنيذ، فشَنُوا عليهم الغارات، وطالت بينهم الحرب إلى أن غلبوهم على مواطنهم وملك بنو راشد بسائطهم القبلية. ثم استوطنوا جبلهم المعروف بهم لهذا العهد، وهو بلد بني يفرن الذين كانوا ملوك تلمسان لأوّل الإسلام، وكان منهم أبو قرّة الصفري، للمزيد أنظر، عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون: **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، تحقيق خليل شحادة الطبعة: الثانية، دار الفكر، بيروت 1988م، ج7/ص203.
- 81 ومن أشهرهم بالمغرب الأوسط أهل الجبل المطل على البطحاء، وهو مشهور باسم هواة، وكان جبل هواة موطناً لبني يلومي الذين كان لهم الملك، للمزيد أنظر، ابن خلدون: **المصدر السابق**، ج6/ص190.
- 82 وهي بقرب مصب نهر شلف في البحر، للمزيد أنظر، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري: **المسالك والممالك**، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1992م، ج2/ص737.
- 83 تمزغان مدينة بالمغرب بقرب مصب نهر شلف في البحر، بينها وبين مستغانم ثلاثة أميال، للمزيد أنظر، أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميري: **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الثانية، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت 1980م، ص 128.
- 84 التنسي: **المصدر السابق**، ص 254.
- 85 أنّ النقص إنّما يبدو في الدولة من الأطراف فإذا كانت ممالكها كثيرة كانت أطرافها بعيدة عن مركزها"، الفصل الثامن: **"في أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدها على نسبة القانمين بها في القلة والكثرة"**، مقدمة ابن خلدون، ج1/ص205.

- 86 ابن فارس ج4/ص 56.
- 87 اشتد الصراع على السلطة، في القرنين الثامن والتاسع الهجريين وانتشرت ظاهرة القتل بين أفراد البيت الواحد بسبب السلطة سواء في الدولة الحفصية أو الزيانية أو المرينية وحتى في الأندلس عصر بني الأحمر، حتى أطلق عليها الأستاذ عبد العزيز فيلالتي بالإصابة بحمي السلطة، للمزيد أنظر، تلمسان في العهد الزياني، ج1/ص 72.
- 88 التنسي: المصدر السابق، ص 257.
- 89 المصدر نفسه، ص 257.
- 90 وهو الملقب بالمعتصم بالله، ويُدعى بأمير المسلمين، عبد الباسط: المصدر السابق، ج1/ص ص 55-56.
- 91 عبد الباسط بن خليل: نيل الأمل، ج6/ص 128.
- 92 يذكر السخاوي أن أحمد بن أبي حمو مات سنة 865هـ، الضوء اللامع، ج1/ص 292.
- 93 عبد الباسط: الروض الباسم، ج1/ص 55.
- 94 عبد الباسط: نيل الأمل، ج6/ص 128.
- 95 ابن الشماع: المصدر السابق، ص ص 112-119.
- 96 أحمد بن فارس بن زكرياء: معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر، القاهرة 1979م، ج3/ص 303.
- 97 ابن منظور: المصدر السابق، ج2/ص 517.
- 98 سعدي أبو حبيب: القاموس الفقهي، الطبعة الثانية، دار الفكر، دمشق 1988م، ص 215.
- 99 التنسي: تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، ص 109.
- 100 التنسي: مخطوط نظم الدر والعقيان، رقم 1875، الورقة 81.
- 101 ابن سعد: روضة النسرين، ص 155.
- 102 هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن موسى بن معطي العبدوسي الفاسي: مفتيها وعالمها ومحدثها وصالحها الإمام العلامة العمدة الفهامة الحافظ نزيل تونس وحفيد الإمام أبي عمران العبدوسي، أخذ عن والده وجده أبي عمران، وكان زاهداً قطباً في السخاء إماماً في نصح الأمة له نظم حسن في شهادة السماع ورسائل وفتاوى كثيرة، توفي في ذي القعدة سنة 849هـ/1445م، محمد بن محمد بن مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، خرج حواشيه وعلق عليه عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت 2003م، ج1/ص 367.
- 103 لم أجد له ترجمة فيما توافر لي من مصادر.
- 104 ابن سعد: روضة النسرين، ص 157.
- 105 التنسي: تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، ص 109.
- 106 ج1/ص 101.
- 107 نظراً لأهمية عبد الله الكامل في تحديد النسب الشريف لبني زيان فقد أفرده له التنسي الباب السادس من القسم الأول من كتابه نظم الدر والعقيان من الورقة 40 وإلى الورقة 80و، وعبد الله الكامل هو أحد أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب توفي سنة 144هـ/762م، للمزيد أنظر، محمد بن عبد الله التنسي: مخطوط نظم الدر والعقيان، رقم 1875، الورقة 47.
- 108 هو صاحب الأشغال بمدينة تلمسان ومدبر الملكة للسلطان محمد بن أبي ثابت وكان قد اختص به وقربه وأدناه من سلطنته دون كل أحد وركن له واطمأن إليه، ولم يكن للوزير ولا لغيره معه كلام والأمر في مملكة تلمسان والنهي إليه، ومن ميزاته أنه كان مستويا عاقلاً مع ميله لطلب العلم ومحبة الفضل والفضيلة وأهل العلم، عبد الباسط، الروض الباسم، ج3/ص 48.
- 109 عبد الباسط: المصدر السابق، ج3/ص 52.

- 110 الزركشي: محمد بن إبراهيم الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق وتقديم الحسين يعقوبي وآخرون، المكتبة العتيقة، تونس 1998م، ص 303.
- 111 التنسي: تاريخ ملوك بني زيان، ص 264.
- 112 أبو القاسم بن رضوان المالقي: الشهب اللامعة في السياسة النافعة، تحقيق على سامي النجار، دار الثقافة، الدار البيضاء 1984م، ص 432.
- 113 عبد الباسط: الروض الباسم، ج 3/ص 29.
- 114 المصدر نفسه، ج 3/ص 129.
- 115 المصدر نفسه، ج 3/ص 129.
- 116 عبد العال عبد المنعم الشامي: "جغرافية المدن عند العرب"، مجلة عالم الفكر، المجلد 09، العدد 01، الكويت 1978، ص 138.
- 117 عبد الباسط: المصدر السابق، ج 3/ص 35.
- 118 عبد العزيز فيلالي: تلمسان في العهد الزباني، ج 1/ص 148.
- 119 عبد الباسط: المجمع المفقن، ص 121.
- 120 بعد أن كانت تقصد، ويقصد بها هو أيضا، فبقي القصد إليه فقط، ولا يدخل الزاوية إلا من يزور ضريح الولي الصالح محمد الهواري ويخرج سريعا، حتى ندم ولد الشيخ محمد الهواري على ما كان منه غاية الندم، عبد الباسط: المجمع المفقن، ص 122.
- 121 عبد الباسط: المصدر السابق، ص 122.
- 122 المصدر نفسه، ص 122.
- 123 المصدر نفسه، ص 135.
- 124 المصدر نفسه، ص 123.
- 125 المصدر نفسه، ص 123.
- 126 المصدر نفسه، ص 124.
- 127 المصدر نفسه، ص 136.
- 128 المصدر نفسه، ص 136.
- 129 عبد الباسط: الروض الباسم، ج 3/ص 30، ابن مريم: البستان، ص 395.
- 130 هو: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم العقباني. أنظر، الزركشي: تاريخ الدولتين، ص 153-155، السخاوي: الضوء اللامع، ج 6/ص 181، في ترجمة جده قاسم رقم 618.
- 131 عبد الباسط: الروض الباسم، ج 3/ص 60.
- 132 عبد الباسط: المصدر السابق، ج 3/ص 24، ابن مخلوف: المرجع السابق، ج 1/ص 383.
- 133 عبد الباسط: المصدر السابق، ج 3/ص 24، ابن مخلوف: المرجع السابق، ج 1/ص 364.
- 134 عبد الباسط: المصدر السابق، ج 3/ص 24، ابن مخلوف: المرجع السابق، ج 1/ص 386.
- 135 عبد الباسط: المصدر السابق، ج 3/ص 24، ابن مريم: البستان، ص 392.
- 136 ابن سعد: المصدر السابق، ص 183، ابن مريم: البستان، ص 144-147.
- 137 عبد الباسط: نيل الأمل، ج 1/ص 38.
- 138 روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، مراجعة وتحقيق يحيى بوعزيز، عالم المعرفة للشر والتوزيع، الجزائر 2009م، ص 137.
- 139 عبد الباسط: الروض الباسم، ج 3/ص 37.

- 140 عبد الباسط: نيل الأمل، ج1/ص 44.
- 141 عبد الباسط: المصدر نفسه، ج7/ص 37.
- 142 عبد الباسط: الروض الباسم، ج3/ص 37.
- 143 المصدر نفسه.
- 144 ابن سعد: روضة النسرين، ص 232.
- 145 عبد الباسط: الروض الباسم، ج3/ص 29-30.
- 146 ابن سعد: المصدر السابق، ص 227.
- 147 عبد الباسط: الروض الباسم، ج3/ص 218.
- 148 ابن سينا: القانون في الطب، دار الكتب العلمية، بيروت 1999م، ص 3.
- 149 المصدر السابق، ج1/ص 650.
- 150 وهو مقرب ومختص بصاحبها من غير أن يداخله فيما يتعلق بالمملكة لعقله ورأيه، عبد الباسط: الروض الباسم، ج3/ص 24-25.
- 151 عبد الباسط: الروض الباسم، ج3/ص 64.
- 152 عبد الباسط: نيل الأمل، ج1/ص 39.
- 153 عبد العزيز فيلالي: بحوث في تاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط، دار الهدى، عين مليلة 2014م، ص 119.